المرجعية الدينية والفكر الإسلامي
جدل الإختلاف والإجماع

يجمع الباحثون والكتاب، المعاصرون والقدامى على أن القرآن قد شكل "نصا مركزيا" في الفكر الإسلامي (1). غير ان هذا لاينفي حقيقة ان القرآن قد قرىء قراءات مختلفة، وفهم اشكالا متعددة من الفهم، ما يسمح لنا أن نميز بسهولة بين القراءات وأشكال الفهم التي اعتمدت ادوات قرآنية (أي فهمت القرآن بالقرآن) من أجل أهداف محددة قانونية وأخلاقية وسياسية وبين أخرى تناولت النص المقدس من منطلق أرضية أجنبية (أي فهمت القرآن القرآن بمنطق مخالف لمنطقه الداخلي) من أجل أهداف أخرى مختلفة.

يحدد نمط القراءة الأول نسق "العلوم الشرعية" التي تأسست أثناء القرن الثاني الهجري من قراءات وتفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام، وهي علوم تمحورت كلها حول فهم النص الديني لا بوصفه متضمنا لمبادىء الايمان والإعتقاد

(1) بالرغم من أن النص القرآني كان دائما يؤخذ في مبدئه وصده كمكرس للتعاليم الإلهية كما انزلت، الا انه استلهم في الواقع على مستويات خمسة أساسية هي : مستوى ميتافيزيقي مستوى علمي مستوى اخلاقي فقهي. مستوي تاريخي مستوى نحوي ادبي ومزية هذا التوزيع لمضامين الوحي تكمن في ابراز الحضور الكلي للروح الدينية في اهم علوم المسلمين. مباحث في الفكر الإسلامي. محمد اركون ص : 17، مطبعة لاروز 1973.

والعمل فحسب، بل باعتباره مصدرا لاستباط الاحكام الشرعية ثم فيما بعد لبناء المؤسسة الدينية التي ستعمل على توجيه المجتمع وتنظيمه وفق صيغ ومبادىء نهائية. ويحدد نمط القراءة الثاني انساقا مختلفة من العلوم، من بينها نسق "العلوم العقلية " التي لم تكن تستند مطلقا الى نص ديني لا إسلامي ولا غيره، كالرياضيات والمنطق والطبيعيات والفلك والطب والهندسة والميتافيزيقا، وانما كانت علوما قائمة منذ فترات سابقة عن الإسلام بأزيد من اثنى عشر قرنا، وهي المدة الزمنية الفاصلة بين ازدهار الحضارة اليونانية القديمة، وانبثاق الحضارة الإسلامية.

ولاننسى علمين يخرين لايدخلان ضمن النسقين المذكورين، وهما " علم التصوف" و"علم الادب"، اللذين ينفتحان على مرجعيات مختلفة، لا نصية ولا عقلية، ومن الثابت ايضا ان هذه الأنساق من العلوم لم تظهر الا ابتداء من القرن الثاني الهجري، حوالي 150 هجرية ومايليها، وهي المرحلة التي سميت بعصر التدوين (2)، وان كان هذا لاينفي بأن ما تم في هذا العصر بالنسبة لعلوم الدين

خاصة سبقته إرهاصات وجذور تمتد الى مرحلة النبوة ومرحلة الصراع الأول على الخلافة، أي مرحلة الخلفاء الراشدين والعصر الأموي ويعلم الجميع اليوم، بأن العلوم الدينية إن كانت ثمرة تربية إسلامية خالصة حيث عبرت عن رغبة المسلمين الأوائل في

(2) انظر تفاصيل تاسيس هذه العلوم في القرن الثاني والثالث في " ظهر الإسلام لاحمد امين الجزء الثاني مكتبة النهضة المصرية الطبعة 8

فهم دينهم انطلاقا من نصوصــه الأصلية فإن العلوم العقلية إنما تسربت الى المجال الثقافي الإسلامي عن طريق الترجمة التي نشــطت منذ الثلث الول من القرن الثاني للهجرة وبلغت اوجها في عهد المأمون العباسي مع "بيت الحكمة".

ولم تكن هذه الترجمات مجرد تعبير عن رغبة المســلمين في اســتكمال معارفهــم "الدنيوية" بعد ان رســخت فيهم المعارف الدينيــة الأولية، كمــا يحاول الوعي افســلامي المعاصر أن يثبت بــل كانت تعبيــرا عن انبثلق مرجعية موازيــة ذات أصول اجنبية: يونانيــة بالدرجــة الأولى، ثــم هندية فارســية، وإضفــاء الطابع الإنســاني الكوني عليه قرونــا عديدة، وهي مرجعية مســتقلة قائمــة الــذات، ولم تكن محتــواة في لإطــار المرجعيــة الدينية الصلية بــل انها اعتمدت في بناء شــكل مختلف من اشــكال التعامــل مع النص الديني نفســه مما ســيؤدي الــى قيام صراع فكــري ثقافــي بــين المرجعيتين كانت لــه امتداداته الســياســية والإجتماعية الواضحة.

ومــا ينبغي التأكيد عليــه، هو أن الخصومة التي نشــأت بين المرجعيتين كان ســببها "عدم الإعتراف" الــذي واجه به أصحاب المرجعيــة الأصيلــة، المرجعية "الدخيلــة" وهو رفــض كان يعلل بسببين.

1 - انهــا مرجعيــة "مختلفــة" عما تكرس مــن تقليد الفكر الديني في القرن الول (العودة الى النصوص رواية وغسناد الخبر)

2 - أن قراءتهــا لمضامين الوحي كانت خارج "الإجماع". اجماع

الصحابة والســلف ومــن تلاهم، فتكون بذلك قــراءة محرمة أو منبوذة، دون أن يعني ذلك انها لم تكن موجودة.

ويمكــن للدارس ان يتتبع خيوط هذا الصراع منذ بوادره الاولى في القرن الول، قبل ان تتأسس العلوم بمبادئها ونظرياتها وتكتمل انســاقها، حيث رســخ الصحابة معايير السلوك والإعتقاد التي حفل بها القرآن والسنة، وعبروا عن رفضهم لكل ما لا يدخل في دائــرة الإتباع لنموذج عصر النبوة، تبعا لما تحض عليه يلآيات : "وما اتاكم الرســول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا" (الحشــر الآية7) "وأطيعــوا الله ورســوله" (آل عمران الايــة 132) و"لقد كان لكم في رســول الله اسوة حسنة" (الأحزاب الآية 21) ولذلك اعتبر ابن كثير ان ســبب عدم انتشــار " العلوم العقلية" في بلاد الإسلام خلال القرن الأول :"لما كان الســلف يهون عن الخوزض فيها " ولم يكــن هذا التصــدي مجرد موقف مــن مضامين فكريــة اجنبية بل رفضــا قطعيا لأســلوب التفكير الجديد الــذي تحمله " علوم العجم" وهو الأســلوب الذي لم يكن فقط يتعارض مع الذهنية العربية البسيطة

والعفوية (3) بل كان ايضا يختلف كل الإختلاف عن اســلوب الإتبــاع المطلق التــي تعامل به الصحابة مــع موضوعي افيمان والمعرفــة بصفة عامــة، فقد كان الإيمان عندهم يســبق المعرفة

(3) يقول الجاحظ مبينا ذلك :" كل كلام للفرس وكل كلام للعجم فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة، وعن مشاورة ومعاونة وعن طول التفكير ودراسة الكتــب وحكاية الثاني علم الاول وزيادة الثالث فــي علم الثاني حتى اجتمعت ثمــار تلــك الفكر عند آخرهم وكل شــيء للعرب فإنما هو بديهــة وارتجال وكانه افلهام وليست هناك معاناة ولا مكابرة ولا إجالة فكرة ولا استعانة..." الجاحظ : البيان والتبيين، ج2 ص : 13.

اذ هو تسليم مبدئي، وكانت المعرفة تأتي بعد ذلك لإدراك ما ينبغي عمله وليس غيره بينما تحمل المرجعية الأجنبية آنذاك بذور تفكير يضع المعرفة في الصدارة ويجعل العقل أساس طلب الحكمة والحقيقة التي ليس لها قبل جهد العقل أي بناء مسبق وجاهز وهذا ما يفسر المعاملة القاسية التي تعرض لها ذوو النزعة العقلانية الجنينية من المسلمين في القرن الأول بعد أن "حدث الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوى" ونخص بالذكر منهم اولائك الذين تجرأوا على طرح قضايا الإعتقاد الميتافيزيقية على محك النظر العقلي المنطقي في وقت مبكر. ويصفهم أحد المؤلفين القدامى قائلا :" وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية، وكانوا يخوضون في

القدر والإستطاعة كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم. وكان ينكر عليهم من كان قد بقى من الصحابة : عبد الله بن عباس وجابر وانس وابي هريرة وعقبة بن عمرو وأقرانهم، وكانوا يوصون اخلافهم بأن لا يسلموا عليهم ولايعودوهم ان مرضوا، ولا يصلوا عليهم ان ماتوا (4)

ويظهر من هذا النص بان موقف هؤلاء المفكرين الثلاثة قد نعت بكلمة "خلاف" اشارة الى انه موقف خارج الإجماع إجماع الصحابة على وجه الخصوص وانه كان منصبا على موضوع القضاء والقدر وحرية الانسان وان عقاب هؤلاء كان بمقاطعتهم والتحريض عليهم، وهو التحريض الذي اتى اكله بقتلهم بأشنع الطرق من طرف الحكام الأمويين الذين لم يكونوا يستسيغون

(4) ابو المظفر الاسفراييني : التبصير بالدين ص 166

جرأة نقاش عقلاني حول الحرية في زمن اضطهاد سياسي مقنع بإيديولجيا دينية جبرية.

وما يلفت الإنتباه في قصة هؤلاء وكثيرين غيرهم ممن تنتشر اخبارهم في كتب الفرق والملل والنحل هو أن الاسلوب الذي فكروا به في ضايا دينية لم يكن اسلوبا دينيا حيث ثبت بالأدلة النصية والسنة النهي عن الخوض في القضايا الإعتقادية بالعقل (5) ويتضح هذا من تطور فكر هؤلاء القدرية الى بناء اول مذهب عقيني في التفكير مع المعتزلة الذين سيضعون " العقل قبل ورود السمع " وسيعتبرون

أن مرجعيتهم هي العقل ومنطق الفكر الذي هو سابق على جميع الشرائع. اذ بالعقل يعرف الدين نفسه ويفهم وليس بالعكس، كما سيقرون ضرورة تأويل النص الديني في حالة تعارضه مع نتيجة العقل المنطقية وقد أدى بهم ذلك الى ان يختلفوا كليا عن أسلوب التفكير الذي سيتكرس فيما بعد باسم " أهل السنة والجماعة " وسيتضح من التطورات اللاحقة وخاصة مع قضية " خلق القرآن (6) التي تبرز مدى جرأة العقلانية المعتزلية بأن هؤلاء المعتزلة عن كانوا جماعة من المسلمين الذين

(5) يقول ابن تيمية :" كانوا (المسلمون) يرون ان التناظر والتجادل في الإعتقاد يؤدي الى الإنسلاخ من الدين من اجل ذلك كان المسلمون عند وفاة النبي على عقيدة واحدة الا من كان يبطن النفاق ولم يظهر البحث والجدل في مسائل العقائد الا في أيام الصحابة حيث ظهرت بدع وشبه اضطر المسلمون الى مدافعتها ومن ثم تفرقت الفرق ونشا علم الكلام..." ابن تيمية : العقيدة الواسطية، ص : 24.

(6) سنتناول هذه النظرية في بحث خاص، وهي نظرية تظهر تهافت رأي من يقول " بشرف العربية " وتفضيل الله لها " على سائر اللغات.

لايضعون انفسهم خارج دائرة افيمان بالدين ومبادئه فإنهم لم يفكروا في الدين بعقلية دينية اتباعية وانما تناولوه من منطلق مرجعية مستقلة عنه، هي العقل البشري ذي الأولوية المبدئية والمعرفية على النص.

غير ان ما يلفت الإنتباه في هذا التحول التدريجي للفكر افسلامي خلال القرن الاول والثاني هو ان اكتمال خطوط التطور الرئيسية لم يؤد فحسب الى تنميط الفكر الديني وفق اهداف نظام السلطة السياسية (7) تثبيت افسلام السني بل قاد ايضا وبشكل غير مسبوق اليه الى تشجيع الفكر العقلاني والعرفاني الذين كانا يغرفان من موارد أجنبية عديدة لنجد الفكر الإسلامي يتهيكل بعد ذلك خلال القرنين الثالث والرابع كمركب ضخم من مجالات التفكير والمناهج والرؤى المتعددة المرجعيات.

ولكن ما الذي يجعل الإسلاميين يعتقدون في سيادة المرجعية الدينية الواحدة ؟ ينبغي هذا التمييز بين الفكر الذي يمثل اعدة النظام الإجتماعي السياسي يتحكم في العلاقات العامة ويؤطر التوجهات العملية على الخصوص وبين الفكر النظري الذي برز منذ البداية كفكر نخبة وظل تأثيره مقتصرا على المستوى المعرفي، لقد تأسس نسق العلوم الشرعية بعد أزيد من

(7) يعتبر السلفيون عموما بان الانقلاب السني الذي حصل في عهد الخليفه العباسي المتوكل كان انتصارا للحق وتراجعا للباطل الذي كان يمثله المعتزله في رأيهم بينما يتضح من تحليل وقائع تلك المرحلة بأن الخلفاء العباسيين بعد المامون قد توصلوا الى أن الأساس الاكثر تلبية لحاجة النظام انما يوفره التيار السني وليس العقلانية المعتزلة التي تتعارض مبادئها مع الجبرية واخلاق الطاعة.

قرن ونصف من التقليد الشفوي فكانت الممارسة وتدبير شؤون الدولة والمجتمع والتفكير في حاجياتهما هي المنطلق في فهم النصوص الدينية وتفسيرها وتأويلها واستنباط الأحكام منها. وكانت دولة الخلافة بالنظر الى جذورها والطريقة التي تأسست بها تسمح بإيجاد روابط عضوية بين الفكر الديني وحياة الناس حيث بدا كأن هذا الفكر بمثابة خزان للقوانين والقواعد الملهمة او التي يفترض ان تكون ملهمة للسلوك كما "حفلت مراكز الخدمة الادارية برجال ينحدرون مباشرة من الطبقة افجتماعية للعلماء (8) وهذا الموقع الإجتماعي السياسي هو الذي سيخلق لدى الفقيه فيما بعد شعورا بالوصاية على المجتمع وعلى الدولة، كما سيخلق لدى الحاكمين الشعور بالحاجة الى الفقيه لتبرير سلوكهم السياسي، ماداموا ظاهريا على الأقل يعتبرون السلطة قائمة على شرعية دينية ولسنا بحاجة الى التذكير بان هذه الشرعية

الدينية انما تقوم فى أساسها على " اتباع السلفط في ظاهر الخطاب على الأقل وذلك فيما "اجمع" عليه هؤلاء بأنه الحق وبهذا تاسست سلطة الإجماع على سلطة السلف، ليس الصحابة فحسب، بل السلف في كل عصر، ما دام كل عصر في الوعي الديني الإسلامي افضل غسلاما من الذي يليه.

لقد انبنت المؤسسة الدينية وتم تنميط الفكر الديني وغعطاؤه الطابع الشكلي والرسمي لاستمرار المجتمع السياسي

(8) منتغمري وات : الفكر السياسي الإسلامي المفاهيم الأساسية ترجمة صبحي حديدي دار الحداثة للطباعة والنشر بيروت 1981 ص 104.

والدولة ونظام السلطة، تم ذلك بناء على " إجماع السلف" الذي أصبح اعظم أصول الدين " كما عبر الغزالي (9) وسيصبح افختلاف بذلك امرا مذموما لأنه خروج على الإجماع إذ لايعود صدفه الى مدى تماسكه المنطقي او مطابقته للواقع بل الى كونه موضوع اجماع "سابق".

غير ان هذا الرفض للإختلاف لايعني انه لم يكن واقعا فعليا ولقد ركز الإسلاميون دائما على الإختلاف الداخلي أي اختلاف العلماء رحمة غير انهم غضوا النظر عن الإختلاف بمفهومه التعددي الخارجي الذي كان يشير بوضوح الى تعدد مرجعيات التفكير خلال المرحلة المذكورة هذا التعدد الي لم يفلح في طمسه سيادة الإيديولوجيا الدينية الرسمية، ذلك ان تعرف المسلمين على انساق معرفية جديدة عبر الترجمة خلق لديهم ارتباكا بين ثلاثة مواقف متوترة كان الصراع بينها سجالا :

موقف الرفض المطلق لكل ما هو وافد من خارج المجال الثقافي افسلامي وافصرار على الإنغلاق في منظومة دينية مكتملة.

- موقف الانخراط الكامل في المجال المعرفي الاجنبي والدفاع عن مرجعية مغابرة الى حد نقد المرجعية الدينية.

- موقف التوفيق بين قيم ومبادئ المرجعية الدينية الاصلية وقيم ومبادئ المرجعيات المغابرة بهدف تبرير الانشغال بهذه الاخيرة، واذ ان الصراع لم يكن متكافئا بين مرجعية رسمية تدعمها الدولة، ومرجعيات كانت تشد اهتمام نخب عالمة من

(9) محمد عابد الجابري : بنية العقل العربي المركز الثقافي العربي ط2 1991 ص: 127.

المجتمع، فقد اضطرت هذه الاخيرة الى القبول بوضعية الهامش، وضعية الدفاع عن النفس واعلان الحق في الوجود.

فاذا كان اصحاب الموقف الاول الممثل في الفقهاء واصحاب المذاهب الدينية والمشتغلون بالتعليم الديني قد فرضوا هيمنتهم على صعيد الخطاب الايديولوجي ـ بغض النظر عن الواقع الذي كان يتجه في اتجاه مغاير ـ فان اصحاب الموقف الثاني الممثل في دعاة العقلانية المتحمسين، قد تعرضوا لانواع التنكيل والحصار الذي ادى الى محو جل اثارهم، بل ان منهم من اتلفت اثاره رغم غزارة تاليفه حتى صار شخصية يلفها الغموض كابن الراوندي الذي لقبه معاصروه " بالملحد "، ومنهم ايضا الرازي وابن المقفع وابن حيان، وقد اضطر الكثير من المشتغلين بالعلوم العقلية (المنطق ـ الرياضيات ـ الطبيعيات ـ الكيمياء.....) الى مداهنة العامة او التعامل

بحذر شديد مع موضوعات علومهم التى لم تكن تبعث على الارتياح بالنسبة لرجال الدين.

كما يندرج في اطار هذا الموقف الثاني رجال التصوف الذين خاضوا تجربة باطينية عرفانية بلغت في مداها الابعد حد التناقض مع مبادئ المرجعية الدينية مما يفسر النهاية المأساوية لبعضهم.

اما اصحاب الموقف الثالث من الفلاسفة، فتحت وطاة الهجوم العنيف الذي شنه عليهم الفقهاء بتأليب العامة عليهم، اكتفى هولاء بادراج علومهم ضمن " المضنون به على

غير اهله " محدثين شرخا عميقا بينهم (الخاصة) وبين غيرهم من الفقهاء والعوام، مفضلين الانشغال بمنهجهم الخاص الذي زعموا انه ينتهي الى نفس ما بقره الشرع، حتى يتخلصوا من الازعاج والملاحقة، ورغم ان الفلاسفة المسلمين حددوا للفلسفة نطاقها المحدد الذي يوصل الى الحقيقة، الا انهم لم يستطيعوا التخلص نهائيا من الحاجة الى التماس الشرعية في النزعة التوفيقية بين العقل والدين.

ويظهر هذا الصراع بين مرجعيات مختلفة داخل المجتمع الاسلامي، ان المسلمين لم يقوموا بمجرد اقتباسات متفرقة من الثقافات الاجنبية، بل نقلوا ايضا انساقا ثقافية حكمت تصورهم للانسان وللعالم، مما حذا بالمؤسسة الدينية السنية الى المراقبة الشديدة لكل نتاج فكري من شانه ان يدخل تعديلا ما على النظرة الدينية الجوهرية، (واذا ذاع بين المسلمين راي اعتراضي اوجزء من معلومات ما، عندها يجب نقض ذلك الراي قبل رفضه، وقد بذلت عناية كبيرة في مجال النقض لتجنب ذيوع الرأي المضاد) (10). وتحفل كتب النقض التى الفها فقهاء السنة بالكثير من المعطيات التى تفيد بأن معايير الصدق والخطاء انما كانت تستمد كلها ـ مهما كان موضوع النقاش ـ من ثوابت الفكر الديني الذي استكمل ادواته الصارمة التى لم تكن تتعدى من الناحية المنهجية القياس ورواية الخبر واسناده الى اصل مطلق وثابت. وكلما تكرس الاتباع والتقليد للجيل السابق، كلما ازدادت حدة الصراع ضد الافكار التى تبنى من

(10) منتغمري وات : المرجع السابق ص : 104.

مرجعية مختلفة، ولقد تأسست في هذه المرحلة المفاهيم الدينية النهائية للعقل والعلم والمعرفة والمنهج بقيت مستمرة متداولة حتى اليوم في المجال الثقافي الاسلامي. ففي مقابل العقل بمعناه الفلسفي الذي دافع عنه الفلاسفة المسلمون انطلاقا من مرجعية عقلانية يونانية عقل ذي سلطة مستقلة، قادر على بناء المعرفة وبلوغ الحقيقة بقواه الطبيعية البشرية تأسس مفهوم العقل في المرجعية الدينية بأنه مجرد ملكة موهوبة بطبعها القصور، مما يستلزم تبعيتها للشرع. حيث الحقيقة كلها محددة سلفا وبشكل نهائي، وقد أدى هذا الى جعل مهمة العقل بمفهومه الديني مقتصرة على فهم النصوص وتفسيرها والسعي الى تطبيقها، وسيكون لهذا المفهوم للعقل عواقب وخيمة على الحياة الثقافية الاسلامية عموما، اذ سيؤدي الى التقليص ثم القضاء على اشعاع العلوم العقلية (

الطبيعية والرياضية) في المجتمع الاسلامي، باعتبارها غير ذات اساس في الدين.

وقد انبنى مفهوم العلم على مفهوم العقل ذاته، فالعقل المحدود بحدود الشرع، سينتج علما شرعيا ولهذا كتب ابن تيمية (العلم ما قام الدليل عليه، والنافع منه ما جاء به الرسول) (11)، وحتى عندما يقر بوجود ادلة عقلية، فأنه يعتبر أن (أحسن الأدلة العقلية التى بينها القرآن وارشد اليها) (12) مادام

(11) ابن تيمية : مجموعة الرسائل الكبرى ج1، ص:103 – مصر 1965.

(12) المرجع السابق

العقل والنص عنده شيئا واحدا.

ولهذا لا يرى موجبا للنقاش والبحث في امور حسمها النص واوضحها السلف بطريقتهم. يقول في ضرورة تكريس الاتباع للسلف في قضايا كان الجدل حولها محتدما : (فمن كان قصده الحق واضهار الصواب اكتفى بما قدمناه، ومن كان قصده الجدال والقيل والقال زالكابره، لم يزده التطويل الا خروجا عن سواء السبيل) (13).

اما المنهج فقد حدده الفكر الديني في طريقة اسناد الخبر (الحديث) او الاستشهاد بالآيات واسناد الخبر عن تفسيرها الى الرسول والصحابة، وهو المنهج الذي اثر في مجالات عديدة في الفكر الاسلامي، حتى بدا كأن المعرفة الغير مسندة الى السلف باطلة او غير جديرة بالاحترام، وكان لهذا بدوره اثر كبير في توجيه الحساسية الثقافية الاسلامية نحو مجالات محددة ومقاطعة اخرى واغفالها. ويرتبط القياس الشرعي بدوره ـ كمنهج للفكر الديني ـ بالعودة الى الاصول واجماع السلف. فالاجتهاد العقلي لا ينبغي ان يكون مطلقا بل هو عمل عقلي في حدود النص وما حصل فيه الاجماع السابق.

وفي الوقت الذي تم فيه تأصيل هذه المفاهيم في اطار النظرة الدينية السيئة الرسمية كان المسلمون المنشغلون بمرجعيات اخرى يؤسسون ذات المفاهيم على منطلقات مغايرة، فقد ذهب دعاة العقلانية في تمجيد العقل المستقل عن النص مذهبا بعيدا، كما سخر المتصوفة من علم الفقهاء القائم على

(13) ابن تيمية : نقض المنطق. ص:6- طبعة بيروت

النص، واعتبروا الحدس الباطني الطريق اليقيني الوحيد المؤدي الى معرفة الحق " والفناء " فيه " والاتحاد " به.

وفي الوقت الذي كان فيه الخطاب الديني يسعى الى بسط نفوذه وغزو الواقع الاجتماعي باكمله، كانت قوى الواقع تنجدب ـ بمنطق التاريخ ـ نحو اتجاه تطورها الطبيعي الذي فتح الباب امام التثاقف والتفاعل الحضاري على مستوى الفكر والابداع الفني والعادات والتقاليد ونظام الحياة اليومية، ويقدم الادب بانتاجاته الشعرية والنثرية صورة لحياة ابعد ما تكون عن الخضوع المطلق لمرجعية واحدة، دينية كانت او غيرها، فشعر الخمريات والغزل الفاحش، والتسري بالجواري والغلمان والادب الجنسي، قد عرفت كلها ازدهارا كبيرا وانتشارا واسعا تبعا لتحولات المجتمع والحياة المدية

منذ نهاية القرن الاول الهجري، كما يقدم هذا الأدب بكل أصنافه واجناسه صورة لمجال ثقافي متمرد على المرجعية الدينية، منفتحا على مرجعية انسانية كونية قائمة في أساسها على فكرة الجمال الخالدة ولقد لعبت طبقة الكتاب منذ القرن الثاني دورا كبيرا في توسيع المرجعية الأصلية، كما وسعوا الماضي المرجعي الذي لم يعد مقتصرا على الماضي الإسلامي او العربي القصير، بل أمتد اهتمامهم الى الماضي الفارسي والهندي واليوناني، واشاعوا ادبا سياسيا مستمدا من تلك الثقافات كلها نافسوا به نموذج "السياسة الشرعية " الذي اهتم به الفقهاء(14).

(14) انظ تفصيل ذلك في كتاب "السلطة الثقافية والسلطة السياسية" لعلي اومليل – الفصل الثاني.

ان الإختلاف اذن هو حقيقة الفكر الاسلامي كما هو حقيقة الحياة السياسية والاجتماعية الاسلامية. لم تكن امرجعية الدينية ـ رغم هيمنتها – المرجعية الوحيدة للمسلمين. وان كان الخطاب الرسمي يتجاهل المرجعيات الاخرى ويقصيها. ان خطاب الهامش قد يكون في احيان كثيرة اصدق تعبيرا عن الواقع الانساني من الخطاب الشائع والمشاع.

خلاصات

تسمح الفقرات السابقة بفهم الاسباب الدقيقة التي تحمل الاسلاميين اليوم على النفور من مبدأ الاختلاف وكراهية التعداد. انه موقف متأصل في الثقافة الاسلامية التراثية واذ ينطبع تصورهم عموما بالنزعة السلفية. فانهم لا يستطيعون التجديد في المستوى الذي يسمح لهم بتحويل منظومة فكر مغلقة الى ارضية حوار منفتحة يطبعها التسامح.

ومن ثم نستنتج الخلاصات التالية :

1 - ان الاعتقاد السائد لدى الاسلاميين في مرجعية تفكير وسلوك واحدة في الماضي انما مرجعه الى اعتماد تراث الفكر الديني السني الذي كان يمثل الخطاب الايديولوجي الرسمي لدولة الخلافة عبر العصور الاسلامية واذ ان هذا الخطاب اعتبر كل الاتجاهات والمذاهب والرؤى المختلفة عند غير الشرعية فقد اعتبرها الاسلاميون المعاصرون بدورهم غير موجودة. ان من ينظر الى الحضارة الاسلامية من نظارات المرجعية الدينية. لن يرى من هذه الحضارة الا ما هو ديني خالص.

2 - ان التراكم الهائل للتراث الفكري الديني قد شكل عقبة وعرة امام الاسلاميين المعاصرين حالت دون استيعابهم

لمعطيات العصر وقيمه الثقافية الكونية التي لا تتعارض مع روح الاديان وغاياتها والتي لم يعد من الممكن التراجع عنها نحو قيمة سلفية، ولهذا فشلوا في استيعاب فكرة التعدد اللغوي والثقافي بابعادها الحقيقية، وكذا فكرة تعدد مرجعيات التفكير والعمل التي تنسجم مع الحقيقة البشرية والواقع الانساني.

3 - ان العنف الرمزي النابع من سلطة النص قد الجم العقل الاسلامي وحال دون بلوغه المدى المطلوب في مجالات معرفية حيوية مما كان له أثرا سيء على مستقبل الحضارة الاسلامية ما بعد القرن الرابع فالفصل الخطير الذي تم ما بين الدين واهتمامات الفكر الديني من جهة، وبين العلم العقلي من جهة اخرى، نتج عنه عدم امكان التجديد في فاعلية النظم الدينية الاعتقادية والرمزية التي تحولت بالتدريج في افكار الناس الى الثوابت معادية للمعرفة وللعلم بمفهومه العقلاني المستقل، ولهذا لم يستطع الفكر الديني ان يوجه الانسان المسلم في حياته اليومية ورؤيته الشاملة نحو البحث والمعرفة العلمية خارج النصوص والحواشي والشروح الدينية التي راكمها الفقهاء المقلدون.

4 - ان فكرة المرجعية الواحدة اذ تنطوي على رفض مبدئي للاختلاف، تسعى الى اعتبار الانسجام المطلق للمبادىء والثولبت بمثابة الاطار الشرعي الوحيد الذي يمكن داخله الاختلاف في الامور الفرعية، وقد تم بناء على فكرة الاجماع التي حكمت كل العمل الاجتهادي للفقهاء فيما بعد وبناء عليه اعتبر الاختلاف المتعارض مع ذلك الانساج المطلق امرا غير مرغوب فيه وانحرافا

وضلالة تستوجب المواجهة والمعاداة.

5 - ان ما سمي "بإغلاق باب الاجتهاد"، والحضارة الاسلامية في قمة نضجها الثقافي وعطائها المتنوع، قد ادى الى طمس الرؤية الحركية للحياة التي تضمنها القرآن كما طمس الاسلام كقوة حضارية خلقت مجالا حيويا جديدا لشعوب عديدة ن وشكل صلة وصل بين فضاءات انسانية مترامية من الصين عبر الهند وفارس والترك وبلاد العرب وبلاد البربر ثم اوربا، ممثلة بذلك دور المحرض لنشاط العالم.

الوسيط كله، وقد تراجع ذلك كله بسبب محاولة السلطة الدينية أن تقرر لوحدها مصير العالم، وهو ماليس في إمكانها بالطبع.

ولقد كانت مبادرة الوزير " نظام الملك " بتأسيس مدارس سميت باسمه " المدارس النظامية " في اكثر من عشر مدن رئيسية من بلاد الاسلام خلال القرن الخامس بمثابة التنفيذ العملي على المستوى البيداغوجي لفكرة التقليد ونبذ الاجتهاد، وكان الغزالي اكبر شاهد على هذا التناقض بين المقدمات التي انطلقت من قيم الدين العليا والمنفتحة، والنتائج التي ساهمت في هدمها واقصاها، وبسبب هذا التناقض عاش الغزالي حيرة قاتلة اضطر في النهاية ان يتخلص منها بالتصرف وبهلوانيات الروح.